مجلة أبحاث نفسية وتربوية ____________________ العدد 9- ديسمبر2016 ، ص.ص.31-43

اضطراب الهوية الجنسية عند الطفل

أ.د. سوالمية فريدة
قسم علم النفس - كلية علم النفس وعلوم التربية
جامعة قسنطينة 2، عبد الحميد مهري، الجزائر

ملخص
يتطرق هذا المقال إلى اضطراب الهوية الجنسية من خلا محاولة التعريف بالمصطلح، مرورا بتطوره عند الطفل، وينتهي بعرض حالة عيادية.
الكلمات الدالة: الهوية الجنسية – **الجندر** - اضطراب الهوية.

Résumé
Cet article traite des troubles de l'identité sexuée en essayant de cerner la notion d'identité sexuelle, passant par son évolution chez l'enfant et finissant par une illustration clinique.
Mots clés: L'Identité sexuelle, Gender, Troubles de l'identité.

مقدمة

بناءا على نتائج البحوث التربوية تعتبر الهوية الجنسية وبناؤها من المنعرجات المهمة والحرجة أثناء النمو إذ يترتب عليها مستقبل الفرد على كل الأصعدة(النفسية والاجتماعية) فعندما يختار الطفل ويقرر أي هوية سيتبنى، يكون قد رسم مسار حياته وحدد وجهته. وإذا كان الأمر يحدث بطريقة سلسة و– طبيعية – بالنسبة لمعظم الأطفال فإن البعض منهم يعيش الكثير من الصراع، ويجد صعوبة كبيرة في أخذ القرار، وهذا تحت تأثير الكثير من العوامل التي سنتطرق إليها في هذا المقال من خلا ل الحديث عن الهوية الجنسية وكيفية بنائها عند الطفل والعوامل المؤدية إلى اضطرابها، وسننتهي بعرض حالة طفل يعاني من اضطراب في الهوية المجنسة.

© مخبر التطبيقات النفسية والتربوية- جامعة قسنطينة 2- 2016

مفهوم الهوية الجنسية:

قبل الحديث عن الهوية الجنسية: مفهومها، تطورها واضطرابها، نود التعريج باختصار على تعريف مصطلح الهوية لارتباط المفهومين وتداخلهما، والهوية الجنسية ما هي في حقيقة الأمر إلا امتدادا للهوية الفردية وجزء منها.

I- مفهوم الهوية:

يعتبر مفهوم الهوية من المفاهيم المعقدة، لتواجده في نقطة تقاطع بين العديد من التخصصات، وعلى العموم فهو يشير إلى مجموعة ا لمميزات الفردية و الجماعية التي تسمح بتعريف موضوع بصفة واضحة.

وتعود جذور هذا المصطلح إلى فرويد و دوركايم (Zavalloni, 1984) من خلال دراستهم لاستدخال المعايير الاجتماعية: كيف يصبح المعيار الاجتماعي المستدخل، كأنه خاص بالفرد الذي استدخله، ويصبح جزء من جهازه المولد للقلق. يتم استدخال القيم المشتركة للمجموعة من خلال سيرورة الجتمعة، والتي اكتشفها فرويد من خلال حديثه عن تكوين الأنا الأعلى، ودوركايم عن الوعي الجماعي الذي يشارك فيه الفرد.

يدل مصطلح الهوية في علم النفس الاجتماعي على التفاعل الحاصل بين الجانب النفسي والجانب الاجتماعي للفرد، أي أنها محصلة سيرورة التفاعل بين الفرد والحقل الاجتماعي.

إذ يرى (Lipianski, 1992) أن الهوية تتكون وتتأكد من خلال التفاعل مع الآخر. وتشير الكثير من الدراسات لامتلاك الهوية لقطبين: قطب خارجي موضوعي وهو الهوية الاجتماعية، وقطب داخلي ذاتي هو الهوية الذاتية، و التفاعل بين القطبين يمثل النواة المركزية في دراسات الهوية في علم النفس الاجتماعي.

يعود الفضل للعالم Erikson في إبراز أهمية هذا المفهوم، الذي يحتل مكانة مركزية في فكره، و هي مماثلة لمفهوم الجنسية عند فرويد، من خلال إعطائها مكانة في مراحل نمو الإنسان. ومن خلال محاولته الاستناد إلى نظرية فرويد في النمو، قائلا أن النمو هو محصلة تفاعل بين الأنا و المحيط الخارجي، في كل مرحلة من مراحل النمو نفسوجنسي، وذلك من خلال النماذج التقمصية المقترحة.

يرى اريكسون أن تكوين الهوية يبدأ عندما تتوقف أهمية التقمصات، فهي تنشأ من الرفض الانتقائي و من الاستعاب المتبادل لتقمصات الطفولة و ذلك من خلال

استيعابها في صور جديدة والذي يتعلق بدوره بالسيرورات التي يحددها المجتمع لتحديد الفرد والتعرف عليه.

فجذور الهوية حسب إريكسون تمتد إلى الطفولة المبكرة، فهي تطور في مسار حياة الفرد والمجتمع الذي يعيش فيه.

لقد حاول إركسون أن يدرس الهوية من خلال مقاربة متعددة الأبعاد، محاولا التموضع في منظور تحليلي دون إهمال البعد الاجتماعي والثقافي وحتى التاريخي. محاولا الانطلاق من مفهوم الذات، بمعنى المميزات التي يرى الفرد أنها له والتي يعطيها أهمية عندما يريد تأكيد ذاته. ومنه يعرفها على أنها الشعور بالتماثل والاستمرارية الوجودية، أي شعور الفرد بأنه هو نفسه في كل الأوقات وفي كل الأوضاع.

فالهوية نسق من الأحاسيس والتصورات حول الذات، أي مجموعة من المميزات الجسمية، والنفسية والأخلاقية، والتشريعية، والاجتماعية، والثقافية، التي من خلالها يستطيع شخص ما أن يعرف نفسه، يقدمها ويتعرف عليها ويعرف بها.

ويرى (1987) Pierre Tap أن الهوية الفردية هي نظام من التصورات والأحاسيس، من خلاله يقوم الفرد : ببناء واستعمال أفق زمني، وبفضل احساس الهوية يستطيع أن يدرك أنه هو نفسه في الزمن، وأن يعيش في استمرارية وجودية، كما يسمح له هذا النظام بالتطلع والتماسك والوضوح وبتوظيف شخصيته بمعنى تنسيق سلوكه وتطلعاته ورغباته أو هواماته وهذا من أجل البحث عن البقاء –هو نفسه- ويمكنه أيضا من الحفاظ على الايجابية، وتقدير الذات ومن خلالهما يتمكن من تقنين قلقه و شعوره بالفشل.

عندما ينخرط الفرد في علاقات مع الآخرين يتطلب الأمر منه تأدية أدوار مقترحة حسب نمط معين، من خلال إدراج سجلات شخصية مختلفة، مع الأخذ بعين الاعتبار المقاومات التي تفرضها الوضعية والسياق التقني والأفراد الفاعلين الآخرين. يبحث الفرد في هذه الوضعية عن تأكيد ذاته، أو الدفاع عن نفسه، لذا يصبح من الصعب عليه تقبل هذه المقاومات في خضم بذله للجهود من أجل الوضوح والاستمرارية والايجابية.

وتبدأ استراتجيات الهوية في العمل، عندما يجد الفرد نفسه في وضعيات حرجة أو صراعية، التي يمكن ملاحظتها على المستوى السلوكي، من خلال حركات دفاعية: تأكيد الذات، البحث عن التقدير، الانعزال، الانطواء، الشك، ردود فعل دونية أو تشتتية. أي أن استراتجيات الهوية تتحرك عند وجود عدم

اتفاق بين الفرد والمجموعة التي ينتمي إليها وذلك بغية تقليص التباعد بين التناقضات.

إن هوية الفرد مفهوم معقد، يتكون من عدة أبعاد: فمن جهة تعتبرا الهوية كوحدة الفرد التي تنتج بشكل تدريجي، ويستدل عليها من خلال سلوكه و إحساسه، ومن جهة أخرى فإن الهوية هي محصلة لسلسلة من التقمصات للأشخاص، واحتواء أدوارهم، ووظائفهم في المجتمع.

تتطور الهوية عند الطفل من خلال التقمص، الذي يعتبر من الميكانزمات القاعدية في دينامكية الهوية (تقمص الصور الأبوية، والإخوة، الأخوات، الأصدقاء، النماذج العائلية....).

II- الهوية الجنسية:

تعتبر الهوية الجنسية من المفاهيم التي أسالت الكثير من الحبر، وأثارت الكثير من الجدل بين الباحثين والدارسين لها، و محاولة فهمها قد توقع في اللبس والتناقض نظرا لتشعب هدا المفهوم وارتباطه لدرجة امكانية الخلط مع مفاهيم أخرى، التي تكون مكونا له تارة ومرادفا له تارة أخرى، وقد تكون مناقضا له، لذا ارتأينا أن نقف عليه ونسبر أغواره من أجل محاولة رسم حدوده.

إن الحديث عن الهوية الجنسية، يجعلنا نقف أمام ثلاث تسميات مختلف وتستعمل ثلاثتها للدلالة على الهوية الجنسية في مفهومها العام أو للدلالة عن جانب من جوانبها المكونة لها، وترجع كل تسمية إلى حقل دراسي قد يختلف أحدها عن الآخر:

1- الجنس البيولوجي:

يتعلق بالجانب التشريحي البيولوجي، وبالفروق التشريحية بين الجنسين (فروق أساسية و فروق ثانوية)

2- هوية الجندر:

استعمل مفهوم "الجندر" لأول مرة خلال سنة 1950 للتمييز بين مجموعة من الأحاسيس والسلوك التي تجعل الفرد ينتمي إلى " الجنس المذكر" أو "الجنس المؤنث، وبين "جنسه" التشريحي الذي تحدده الكروموزومات والهرمونات والأعضاء التناسلية.

ويفهم "الجندر" على أنه : الأدوار والعلاقات، والاتجاهات، والسلوك والقيم التي يلحقها المجتمع بالأفراد من جنس مذكر أو جنس مؤنث.

يعتبر الجند من المحددات القاعدية للهوية الجنسية إذ أن هناك اتفاق و إجماع بين الباحثين حول ارتباط الهوية الجنسية بالجنس التشريحي عند الغالبية العظمى

للأفراد، لكن يشيرون أيضا أن الوضع يحيد عن المألوف عند بعض الأفراد، الذين يظهرون شعورا باختلاف هويتهم الجنسية عن جنسهم التشريحي. يؤدي هذا الغموض إلى الكثير من المشاكل والاضطرابات عند هؤلاء الأفراد، وعند عائلاتهم و أصدقائهم .

ومنه نخلص للقول بأن هوية الجندر تعود إلى الجنس الاجتماعي والنفسي، وتستعمل للدلالة على إحساس الفرد واعتقاده بانتمائه إلى جنس أو آخر، وقد لا يرتبط هذا الإحساس والاعتقاد بجنس الفرد البيولوجي، لأن هذا الجانب من الهوية هو نفسي بالدرجة الأولى و قد لا يتماشى مع الجانب البيولوجي.

وقد تم استغلال هذا المصطلح من طرف الكثير من الحركات المناهضة للتفرقة بين الجنسين، النسوية منها على وجه الخصوص، التي أصبحت تنادي بأحادية الجندر، وأن الأدوار الجنسية، إنما يتم فرضها عن طريق التنشئة الاجتماعية، ومن بين مطالبهم إلغاء المبادئ التربوية القائمة على أساس التفرقة بين الجنسين، وقد عرفت هذه الحركات رواجا كبيرا.

3- الهوية الجنسية

تعرف الهوية الجنسية كمحصلة لثلاثة أبعاد: يتعلق البعد الأول باعتقاد وإيمان الفرد بكونه ولدا أو بنتا، ويتعلق البعد الثاني بتبني الفرد للأدوار الاجتماعية التي تلحق بالبنات أو الأولاد، بالنساء أو بالرجال.أما البعد الثالث فيتعلق باختيار الشريك الجنسي الذكري أو الأنثوي ويرتبط هذا البعد بالبعدين السابقين و يتوقف عليهما.

إذن فهي ترتبط بإحساس الفرد أنه امرأة أو أنه رجلا، أو التموقع بين الوضعين، أو عدم الانتماء لأي منهما.

تتفق الهوية الجنسية مع الهوية التشريحية عند غالبية الأفراد، لكن الأمر يبدو مختلفا عند بعضهم، الذين ينمو لديهم الإحساس بعدم تماشي هويتهم الجنسية مع هويتهم التشريحية ويدخلون -على اثر ذلك - في صراعات مع انتظارات المحيط منهم.

III-العوامل المؤثرة في بناء الهوية الجنسية:

تتكون هوية الجندر بشكل مبكر، بالرجوع إلى المعايير المرتبطة بالجندر وكذلك المرتبطة بالجسم، وتظهر هذه المعايير في الخطاب الذي يتبناه المحيط الاجتماعي، والسياسي والعلمي والذي يستند إلى الاختلافات التشريحية بين البنات والذكور.

يبدأ هذا التمايز في الطفولة الأولى من خلال ملاحظة جسم الآخر، ويبدأ الطفل في المشاركة في الجندر الذكري أو الجندر الأنثوي. و تعتبر السنوات الأولى من الحياة ذات أهمية بالغة في بلورة وتأكيد الهوية الذكرية أو الهوية الأنثوية. وتتدخل العديد من العوامل من أجل ضمان هذه البلورة وهذا التأكيد.

1- العوامل التشريحية:

تعتبر العوامل التشريحية من العوامل القاعدية في بناء الهوية الجنسية، إذ تمثل الأرضية التي على أساسها يتم اقتراح الأدوار الاجتماعية المتعلقة بالجنس، وتبني هذه الأدوار تدل على درجة اندماج الفرد في محيطه التي تحدد بدورها مدى تقبل المحيط له.

وترجع جذور الهوية الجنسية إلى لحظة تلقيح البويضة، التي يتحدد على إثرها جنس الجنين، وتنتج عنها الفروق الجنسية التشريحية الأولية بداية ثم الفروق الثانوية لاحقا.

2- العوامل الاجتماعية:

تمثل الهوية الجنسية درجة الامتثال التي يظهرها الأفراد إلى مختلف فئات الأدوار الجنسية المتعلقة بجنسهم البيولوجي، بمعنى أنه يتم تحديد أدوار اجتماعية تمثل نماذج خاصة بالذكورة أو بالأنوثة، وعادة ما ترتبط هذه النماذج بالقيم الاجتماعية والثقافية الخاصة بكل مجتمع، أي أنها تخضع لمتطلبات الاجتماعية والثقافية، وعلى اثر هذا يبدو من الطبيعي تسجيل الفروق والاختلافات بين هذه النماذج باختلاف المجتمعات.

وتفرض هذه النماذج مجموعة من السلوكيات والأدوار ترتبط بالجنس البيولوجي. ويتم تربية الأطفال ذكورا وإناثا على تبني هذه النماذج، فيتعلم الطفل منذ ولادته كيفية السلوك و التصرف وفقا لجنسه البيولوجي، ويعمل المحيط على إدماجه في "نوعه"، ابتداء من اللباس، مرورا إلى اللعب، فطريقة المعاملة و هكذا...

وحسب F.Vouillot:" بناء الهوية الجنسية، هو محصلة التفاعل بين العوامل البيولوجية والتأثير المعياري للثقافة (بتوسط التربية والتنشئة الاجتماعية) مع النشاط الانبنائي للفرد الذي يتطلب قدرته ورغبته في أن يكون مثل ما ينتظر منه".

عادة ما يتم تبني الأدوار الجنسية نزولا عند رغبة المحيط التي يجب أن توافق رغبة الفرد في ذلك، أي أن العملية هي عملية تفاعلية دينامية: يجد الطفل نماذج يطلب منه الانخراط فيها، يمتثل الطفل لها لأنها تتماشى مع عوامل فردية خاصة، و لأنه يريد أن يكون مثل الآخرين، و لن يتأتى له ذلك إلا إذا اندمج أكثر

في فئته و حتى يتحاشى حكم الآخر، فكلما كان ممتثلا كلما أحس بالانتماء و تمكن من تفادي نظرات النقد و عدم التقبل.

يبني الفرد نفسه كامرأة أو كرجل من خلال محاولة موافقة سلوكه مع الاستجابات التي ينتظرها المحيطون به و المسجلة اجتماعيا في نماذج خاصة بكل جنس.

يرى: Molinier أن " لا تصل هويتنا أبدا للاكتمال، فهي في حالة مراجعة دائمة حتى تتماشى مع رأي الآخر..... ويتطلب الأمر منا الكثير من الجهد والعمل والمراجعة مع ضرورة تواجد الرغبة في ذلك " (cité par Dafflon Nouvelle,2004) أي أننا خلال تواجدنا نحاول جاهدين في إظهار البراهين على مدى امتثالنا للأدوار المنوطة بنا من خلال الاندماج الذي يعكس لنا الاعتراف من طرف الآخر الأمر الذي يجعلنا نشعر بالأمن وقيمة الذات.

ويرى أنصار نظرية التعلم الاجتماعي، أن تكوين الهوية الجنسية يجمع بين سيرورتين وهما: التعزيز والنموذج، يتعلق التعزيز بدور الراشد مع الطفل، أما النموذج فيعود إلى دور الطفل من خلال جعل الراشد نموذجا لسلوكه ومن خلال ملاحظة محيطه.

يعتمد التعزيز على تشجيع الطفل ومكافئته عندما يتماشى سلوكه مع جنسه واستحسان ذلك، وعلى العكس من ذلك يكون أي سلوك مخالف للجنس محل استهجان ورفض، ويتم تعديل السلوك وفقا لهذا القانون، وعندما يصل الطفل إلى 3 أو 4 سنوات يكون قد تعلم معظم السلوكيات التي تتماشى مع جنسه ويتفادى كل ما لا يتماشى معه.

ومما سبق يتراء لنا أهمية الجنس في كل البنى الاجتماعية، حيث يقوم كل مجتمع بتشفير الأدوار الخاصة بالنساء والأدوار الخاصة بالرجال.

ويرى أنصار هذه النظرية أن البدايات الأولى للهوية الجنسية تبدأ بشكل مبكر جدا، أو ما يطلق عليه مفهوم " مخطط الجندر"(Manier- Idissi et al ,) يتكلمون عن مخطط الجندر المبكر الذي يبدأ حوالي 18 شهرا، أي قبل مرحلة المرآة للكان، يقوم هذا المخطط بتوجيه وتعديل سلوك وردود فعل الطفل المرتبطة بجنسه البيولوجي، يصبح الجندر في العام الثاني من المعطيات الانبنائية المفسرة للمحيط وتوجيه السلوك. وهذا يدل على أن درجة الاندماج في الأدوار الاجتماعية تبدأ بشكل مبكر جدا أثناء النمو.

3-العوامل النفسية:

1.3-فرويد ودور الأوديب:

يرى أنصار التحليل النفسي أن التجنس النفسي sexuation psychique يستند إلى سيرورة التقمص واكتشاف الفروق التشريحية بين الجنسين تحت صدارة القضيب، بمعنى آخر" امتلاك" أو" عدم امتلاك" في المرحلة القضيبية (لابلانش وبونتاليس).

يؤكد فرويد أن اكتشاف الفروق التشريحية بين الجنسين يحدث بين 3 و 4 سنوات بينما تشير الدراسات الحديثة أن الأمر يتم في وقت أكثر تبكير من ذلك أي بين 15 و18 شهر(Pine et Bergman, 1980) وتشير إلى الأهمية البالغة التي تكتسيها مرحلة ما قبل الأوديب للمآل الجنسي للطفل.

تشير الدراسات على تواجد عوامل في المرحلة ما قبل أوديبية لها القدرة على التدخل وبشكل مبكر، في بناء الهوية المجنسة، بما أن الأب يعمل على إدراج نماذج علائقية تختلف عن تلك التي تقدمها الأم، وتظهر هذه النماذج من خلال:الحركات،المشاعر، الأحاسيس، التي تسفر عنها اللغة والتي تنتج حوارات مجنسة.

Stoller-2.3 والنموذج التكاملي في بناء الهوية الجنسية:

حسب Stoller (1989) ترتبط نواة هوية الجندر بالاعتقاد الخاص بكل فرد بانتمائه إلى جندره، يتم اكتساب هذا الإحساس بشكل مبكر قبل سنتين بالتوازي مع نمو الجنسية.

يرتكز Stoller على فكرة وجود نموذج أنثوي أولي" protoféminité " عند الجنسين، أو أنثوية أولية في مقابل ثنائية الجنس النفسي عند فرويد، و أن هناك شبقية تجاه الجنس الأنثوي في أصل نشأة الجنسية، وأن الجندر الأنثوي هو الذي يتواجد أولا ويؤثر تأثيرا كبيرا في الهوية، بينما يتم اكتساب الهوية الذكرية.

يفسر النموذج الأنثوي الأولي بالعلاقة التعايشية للجنين ومن بعدها الرضيع مع الأم، ويتكون لدى الطفل ابتداء من الشهر الثالث -أي قبل مرحلة المرآة بكثير- إحساسا بجسمه كوحدة دينامية، ويبقى ثدي الأم موضوعا نفسيا، ويتأثر الرضيع بأمه من خلال جسمها، صوتها، رائحتها...

ومنه، وعلى مستوى الجندر فإن البنت تعرف استمرارا في الهوية' بينما يحتاج الولد إلى القطيعة مع الهوية من أجل الانفصال عن الأنثوية الأمومية، ويؤكد نفسه في هوية ذكورية والتي تتطلب الاستناد إلى صورة أب حاضرة بالشكل الكافي لذلك. بمعنى أن الطفل الذكر يحتاج إلى صورة أب واضحة وحاضرة وأكثر من ذلك مطمئنة' حتى يتمكن من التخلي عن هوية الأم، لأن التخلي عن هوية الأم في وجود صورة للأب متزعزعة وغير واضحة، لا

تحفز التقمص لديه، الذي يشكل قفزا في المجهول ومخاطرة قد لا يستطيع تحمل عواقبها، الأمر الذي قد يدفعه إلى التمسك بما هو معلوم والحامل للكثير من الاشباعات وهي صورة الأم.

لذا فإن الولد الذكر يعيش صراعا بين رغبته في تبني هوية جنسه وبين تخليه عن الهوية الأمومية الانثوية، لأن هذا يعني بالنسبة له التخلي عن العلاقة الوطيدة مع الأم وكل ما تحمله من اشباعات.

أما بالنسبة للجنس الأنثوي، فيبدو أن التقمص الجندري يتم بسهولة من خلال الاستيعاب المباشر لجندر الأم، لكن التقمص الشخصي قد يكون في خطر أمام وجود اضطرابات في العلاقة مع الأم.

لقد قام الباحثان الأمريكيان Stoller et Chiland بتطوير النموذج التاكاملي في تفسير بناء الهوية الجنسية عند الطفل، من خلا ل إلقاء الضوء على عوامل متعددة: عاطفية، اجتماعية و معرفية. وتكلما على وجود نموذج داخلي أطلقا عليه اسم"النموذج المعرفي العاطفي"، وينطلق هذا النموذج من الفرضية التي مفادها أن للطفل الصغير وظيفة في بناء هويته المجنسة، فهو يشعر ومنذ الشهور الأولى بانتمائه إلى جنس معين، حتى وإن لم يمتلك الوسائل لذلك. يقوم ببناء هذا الشعور بالانتماء إلى جنس معين من خلال الترجمة اللاشعورية على المستوى الانفعالي(اللفظية وغير اللفظية) لخطاب الوالدين، وتفكيك الشفرات،الذي يصبح ممكنا بفضل تطور قدراته الإدراكية والمعرفية. وهذا يدفعنا إلى نظرية نشأة التفاعلات المبكرة بين الطفل والمحيط épigénèse interactionnelle.: تشير هذه النظرية لامتلاك الرضيع كمونات للاتصال مع المحيط بشكل مبكر جدا.

يتداخل تأثير المحيط الاجتماعي ونشاط الطفل في بناء الإحساس بالهوية، والإحساس بالانتماء إلى جنس معين ،بفضل العلاقات المتمايزة – حسب جنس الأب الذي يتعامل معه- و بفضل قدراته الإدراكية وقدراته المعرفية.يتكون هذا الإحساس وينمو بشكل تدريجي مكونا هويته الجنسية.

ابتداء من 15 شهرا و ربما قبل ذلك، يسمح الأب ما قبل الأوديبي بتموضع " علاقة ثلاثية مبكرة" هدفها اخراج الطفل من الاندماج الثنائية مع الأم(تتميز هذا الاندماج بالقوة ، وخاصة بالنسبة للذكر الذي يجد صعوبة في الخروج منه) هذه الوضعية يسميها Stoller "النموذج الأنثوي الأولي protoféminité"، تدخل الأب المبكر يساعد الطفل الذكر خاصة، على أن يصبح فردا مجنسا، منفصلا ومستقلا.

IV- تشخيص اضطراب الهوية الجنسية.

نتكلم عن الاضطراب في الهوية الجنسية عند وجود تضارب بين الجنس البيولوجي والجنس النفسي، أي بين الهوية الجنسية والهوية المجنسة، فيظهر على الطفل رفض واضح لانتمائه الجنسي، ورفض الاندماج في الأنشطة والأدوار المتعلقة بجنسه البيولوجي، ويظهر ميلا أكبر للأدوار والأنشطة الاجتماعية المتعلقة بالجنس المعاكس، ويترافق هذا الرفض بشعور عميق بانتمائه إلى الجنس المغاير فلا يشعر الذكر أنه ذكرا ولا الأنثى أنها أنثى .

وعادة ما يترافق هذا الشعور وهذا الرفض بمعاش مؤلم ناتج عن هذا التناقض وعن نظرة الآخرين وعدم تقبلهم للوضع.

ويشترط DSM IV توفر أربعة معايير أساسية لتشخيص اضطراب الهوية المجنسة:

- الرغبة القوية والملحة في الانتماء إلى الجنس الآخر، أو تأكيد الانتماء إليه.
- عدم الارتياح في جنسه الحالي.
- يحدث كل هذا في غياب للإصابة الطبية والعقلية.
- ينشأ عن هذا الاضطراب مشاكل حقيقية في النشاط الاجتماعي والمهني أو في مجالات أخرى.

V- تقديم الحالة:

س ذكر يبلغ من العمر 11 سنة، ينتمي يحتل المرتبة الثالثة من أربعة إخوة، ثلاثة ذكور و بنت(الصغرى).

تقدم للفحص عند الطبيب المختص في الأطفال بصحبة والديه بسبب التبول اللاإرادي، وبسبب تصرفاته الأنثوية ورفضه للانخراط في المجتمع الذكوري. و طلب الطبيب تدخلنا بعد ما لاحظ غياب الإصابات العضوية.

عند حديثنا مع س بدا هادئا جدا، يتحدث بصوت منخفض ،يتسم بالوسامة والاعتناء الشديد بالمظهر.

يقتسم الغرفة مع أخته الصغرى وكذا الألعاب والأنشطة، يميل إلى مخالطة الفتيات ويكره اللعب مع الذكور، معللا ذلك بكون لعبهم يتسم بالخشونة، تقول الأم أنها أثناء الحمل كانت ترغب في الحصول على بنت بشدة وخاصة وأن الحمل الأول والثاني كانا ذكرين، وكم كانت خيبتها كبيرة عندما علمت أنها لم تكن حاملا ببنت.

س لا يتفق مع أخويه وتتسم العلاقة بينهما بالعداوة والرفض من طرف الأخوين اللذين يعيبان فيه تصرفاته الأنثوية ويرون فيه عارا على العائلة وما زاد الطينة بلة تعرضه لاعتداء جنسي من طرف مراهقين في الحي، ولا ينفك أخويه يذكرانه بالحادثة ويلقبانه بـ " الطفلة".

الأب من النوع المنسحب والسلطة بيد الأم التي سيطرت على مجرى المقابلة وتسيطر على كل الأوضاع داخل الأسرة، تخلت الأم عن العمل كإطار من أجل تربية الأولاد ويعمل الأب كإطار أيضا.

"س " قليل الحديث طلبنا منه رسم رجل، ثم رسم عائلة.

بالنسبة لرسم الرجل قام" س" برسم فتاة وأعطاها نفس عمره، وألحق بها نفس خصائصه واهتماماته، واهتم برسم التفاصيل كما تفعل الفتيات عادة ، وهذا قد يدل على اضطراب الهوية الجنسية التي يعاني منها "س" ولقد أشارت روير (1977) إلى مشكلة رسم الطفل لشخص معاكس لجنسه، مبينة وجود اضطرابات من نوع الجنسية المثلية وعدم قبول الطفل لجنسه"...تظهر الميولات المثلية من خلال رسم شخص من الجنس المعاكس لجنس الطفل..." (Royer,1977,p.197)

لأنه في العادة، عندما يطلب من الطفل أن يرسم شخصا فإنه يقوم برسم نفسه كما يراها(بورتري ذاتي) ويحمل الشخص المرسوم نفس رغباته، وأحلامه ومعاناته. وتضيف روير أن مثل هذه الحالات تدل على الصعوبة التي يجدها الطفل في تقبل جنسه، وتنكره لحقيقته البيولوجية.

وهذا ما لاحظناه على الحالة أثناء المقابلة و حسب المعلومات التي جمعناها، بدا واضحا أنه يعاني من مشاكل فيما يخص الهوية الجنسية، (لم يعبر عن ذلك صراحة و لكننا استنتجنا ذلك من خلال ميولاته ورغباته) فهو يفضل اللعب مع الفتيات، و يجد متعة كبيرة في مشاركة النساء الحديث و الاهتمامات، ونادرا ما يخرج للعب- حسب تصريح الأم.

وقد لاحظنا أيضا، من خلال رسم العائلة، أن "س" قام برسم الأم وأعطاها مكانة مركزية في الرسم، إلا أن جنسها لم يكن واضحا بشكل جلي، فهي امرأة لأنها تضع خمارا على رأسها في حين أن ملابسها كانت أقرب للباس الرجال، مع إبراز واضح للحزام الذي يعتبر رمزا جنسيا ذكريا،" ..على مستوى الحركات التقمصية (الهوية والتقمص) فإن المشكل يكون أكثر تعقيدا؛ لأن رسم الشخص يظهر أقل وضوحا على المستوى الجنسي" (Schmid,1985,p.35) وقد

يدل هذا على غموض في الصورة الجنسية التقمصية التي تقدمها الأم، التي بدت من النوع المتسلط أثناء المقابلة، في حين بدا الأب من النوع المنسحب المسالم.

إن تسلط الأم، ورغبتها الملحة في الحصول على بنت، مع الانسحاب الواضح للأب من العلاقة جعل الحالة يعيش نوعا من الارتباك التقمصي، الأمر الذي لم يساعده كثيرا في اكتساب هوية جنسية ذكرية، وكما أشار إليه Stoller، فإن الوجود القوي لأب حاضر ويمارس دوره، وحده الكفيل بإخراج الطفل الذكر من النموذج الأنثوي الأولي، واكتسابه لهوية تتماشى مع جنسه البيولوجي.

إن الصعوبة بالنسبة للطفل الذكر تكمن في أيجاد تعويض من خلال : التخلي عن الإشباع والأمن الذين يوفرهما تقمص الأم وبين تقمص غير مضمون العواقب للأب . وفي هذه الحالة على الأم تقبل الوضع وتشجيعه وعلى الأب السماح بحدوث هذا التقمص.(Trappin,2005)

وما زاد من تعقد الوضع في رأينا هو تعرض الحالة لاعتداء جنسي من طرف مراهقين في الحي، الذي من شأنه أن يعزز من فكرة كونه فتاة لا فتى، وقد يساعد لاحقا في تقبل الهوية الأنثوية و يكون من العوامل التي قد تساعده في الاختيار في سن المراهقة، لأن الحسم و تبني هوية جنسية دون غيرها عادة ما يحدث في المراهقة تحت تأثير العديد من العوامل والتي تطرقنا إليها.

الخاتمة

تعتبر الهوية الجنسية و ما يعتريها من اضطراب، من المشاكل التي أثارت الكثير من الجدل، والتي تم استغلالها من طرف العديد من الحركات، ولكننا كمختصين ننظر إليها كاضطراب محتمل الحدوث أثناء النمو، وقد يتعقد بوجود بعض العوامل النفسية والاجتماعية والبيولوجية، وقد يصل هذا الاضطراب في حالة عدم حله إلى مطالبة الفرد بتغيير جنسه حتى يتغلب على الألم والمعاناة التي يشعر بها.

ومجتمعنا الجزائري ليس بمنأى عن هذا النوع من الاضطرابات التي تتطور في الخفاء لأننا نتحاشى الحديث عن كل ما هو طابو؟ ويكفي أن نشير إلى أن الظاهرة قديمة في مجتمعنا، إذ تحدث عنها البروفيسور بن اسماعيل في كتابه.« psychiatrie aujourdhui »

قائمة المراجع:

باللغة العربية:

1- لابلانش وبونتاليس.(1985).معجم مصطلحات التحليل النفسي. ترجمة مصطفى حجازي. ديوان المطبوعات الجامعية.الجزائر.

باللغة الأجنبية

2-Agence de la santé publique du canada,2011, l'identité sexuelle à l'école. Catalogue HP5-97/2-2011F-PDF.

3-Dafflon Nouvelle ,A.(2004).Pourquoi les garçons ne jouent pas aux barbies et les filles ne se déguisent pas en cow-boy ? cinquième congrès international de psychologie sociale en langue française. Lausanne. Suisse.

4-DSM-IV.(1996).Manuel diagnostic et statistique des troubles mentaux. Masson,Paris.

5-Elssa Schmid-Kitsis.(1985).Themes et clinique du fonctionnement mental.Pirre Mardaga,Editeur.

6-Freud.S.(1987) Trois essais sur la théorie de la sexualité.Gaillmard,Paris.

7- Piavaux.C, Hayez.J.Y.(2005) Jean :A propos d'un garçon intensément féminin et des troubles de l'identité sexuée. in *"Louvain médical"* - Vol. 124, no. 2, p. 119-125 (2005) http://hdl.handle.net/2078.1/164776

8-Royer.Jacqueline.(1977).la personnalité de l'enfant a travers le dessin du BONHOMME.Bruxelles :Editest.

9-Stoller.R,(1978).Recherches sur l'identité sexuelle.Paris :Gallimard.

10-Stoller.R. (1989)Masculin et féminin ?PUF,Paris,.

11-Tap.P.(1985) .Masculin et féminin chez l'enfant. Private Toulouse.

12-Tap.P.(1987).Identité,style personnel et transformation des rôles -sociaux .Bulletin de psychologie Tome Xl-N 379.

13-Trapin Damien, « De l'identité sexuelle à l'identité de genre: une révolution képlérienne ?. », *Psychologie clinique et projective* 1/2005 (n° 11) , p. 9-33
URL : www.cairn.info/revue-psychologie-clinique-et-projective-2005-1-page-9.htm.
DOI : 10.3917/pcp.011.0009.

14- M. Zavalloni (1984) Identité sociale et conscience, Montréal, Les Presses de l'Université de Montréal.